

ألف باء التحديث

جلسنا كالعادة نشرب الشاي، والقهوة، والنعناع، ونتحدث في أمور الوطن وأحوالنا الحاضرة. وجرى الحديث وتشعب حتى وصل إلى موضوع تحديث مصر. قال أحدنا: التحديث مشروع مهم جداً. وقد بدأه محمد علي، ونجح فيه إلى حد كبير، لكنه أهمل أموراً أساسية. فقد اهتم بالجوانب المادية وأهمها تحديث الجيش المصري، ولم يهتم كثيراً بتحديث المجتمع المصري. والدليل على ذلك أن المدارس كانت كلها موجهة لخدمة الجيش فقط، وكذلك المستشفيات. والواقع أن نصف القرن الذي حكم فيه محمد علي يمكن أن نطلق عليه تحديث الجيش المصري، وليس تحديث المجتمع المصري. عقب الثاني قائلاً: لكنني أرى أن تحديث الجيش هو المدخل الضروري لتحديث المجتمع. لأن الجيش القوي المتطور هو الذي يحمي مكاسب الشعب، ويدفع عنه عدوان الغزاة الطامعين فيه. ولذلك فإن الرجل في رأيي بدأ فعلاً بالخطوة الأولى. وقال الثالث: أنا اتفق معك تماماً في ذلك. والمشكلة إنما جاءت من أبناء محمد علي وأحفاده الذين لم يواصلوا مسيرة جدهم الكبير، صحيح أن إسماعيل باشا كان لديه تصور حضاري متقدم للمجتمع المصري على غرار النموذج الفرنسي، لكنه لم يتمكن من تطبيقه بالكامل، وما لبثت القوى الخارجية أن تدخلت في أمور مصر فعرقلت مشروعاته، بعد أن كبلته بالديون وفوائدها الثقيلة، قال الرابع: ولما تنسوا يا جماعة أن وقوع مصر في براثن الاحتلال الإنجليزي الذي استمر من 1882 حتى 1952 قد فرمل عجلة التقدم، التي كان الشعب المصري يسعى بكل جهد ممكن لانتطاعها. وهنا قال الخامس: المهم الآن يا سادة هو منهج التحديث وآلياته في مطلع الألفية الثالثة، فقد رحل الاستعمار، وتحررت الإرادة المصرية من سيطرة الأجانب، وتأكدت لمصر مكانتها الإقليمية، وأصبحت لها سمعتها العالمية. كما أنها قد استكملت بنيتها الأساسية، ولم يبق أمامها سوى أن تخطو تلك الخطوة المنشودة على طريق التحديث. سأل الأول: وما هي في رأيكم تلك الخطوة؟ قال الثاني على الفور: التعليم العصري الذي يملأ عقول التلاميذ بالمعلومات، ويحرك أيديهم بالمهارات، ويضعهم على طريق الكفاءة، كما يدفعهم إلى الابتكار والإبداع. وقال الثالث: في رأيي أن الإدارة هي نقطة البدء الحقيقية، فهي التي تدفع عجلة الإنتاج بالسرعة اللازمة، مزيلة من أمامه كل العوائق، وموجهة له إلى أفاق واسعة في الداخل والخارج. أما الرابع فقال: لكن ينبغي ألا تنسوا احترام قيمة الوقت، ومزايا الإبتقان. وقد ورد في ثقافتنا العربية أن الوقت من ذهب كما أنه كالسيف. إن لم تقطعه قطعك. ونحن نشاهد الكثير من الأوقات المهدرة فيما لا ينفع، كما أن الإبتقان غائب مع الأسف في كثير من المجالات، لذلك ينبغي أن توضع القوانين لمحاسبة من يهدر الوقت، أو يتسبب في الإخلال بالإبتقان في العمل. وعاد الخامس يقول: وقبل ذلك كله وبعده، لابد من إيقاظ ضمائر الناس، لكي يعملوا من أجل المصالح العام كما يعملون لصالحهم الخاص. وفي تقديري أن المهدفين لا يتعارضان. فالإنسان الذي يراعى مشاعر أسرته لن يضيره في شيء أن يراعى مشاعر الغرباء. والذي يحرص على نظافة منزله يمكنه أن يساهم في نظافة الحي الذي ينتمي إليه. والذي يعنف ابنه على شرب المسجائر عليه أن يبدأ أولاً بنفسه

جلسنا كالعادة نشرب الشاي ، والقهوة ، والنعناع ، ونتحدث في أمور الوطن وأحوالنا الحاضرة . وجرى الحديث وتشعب حتى وصل إلى موضوع تحديث مصر . قال أحدنا : التحديث مشروع مهم جداً . وقد بدأه محمد علي ، ونجح فيه إلى حد كبير ، لكنه أهمل أموراً أساسية . فقد اهتم بالجوانب المادية وأهمها تحديث الجيش المصري ، ولم يهتم كثيراً بتحديث المجتمع المصري . والدليل على ذلك أن المدارس كانت كلها موجهة لخدمة الجيش فقط ، وكذلك المستشفيات .
والذي حكم فيه محمد علي يمكن أن نطلق عليه تحديث الجيش المصري ، وليس تحديث المجتمع المصري . عقب الثاني قائلاً : لكنني أرى أن تحديث الجيش هو المدخل الضروري لتحديث المجتمع . لأن الجيش القوي المتطور هو الذي يحمي مكاسب الشعب ، ويدفع عنه عدوان الغزاة الطامعين فيه . ولذلك فإن الرجل في رأيي بدأ فعلاً بالخطوة الأولى . وقال الثالث : أنا اتفق معك تماماً في ذلك . والمشكلة إنما جاءت من أبناء محمد علي وأحفاده الذين لم يواصلوا مسيرة جدهم الكبير ، صحيح أن إسماعيل باشا كان لديه تصور حضاري متقدم للمجتمع المصري على غرار النموذج الفرنسي ، لكنه لم يتمكن من تطبيقه بالكامل ، وما لبثت القوى الخارجية أن تدخلت في أمور مصر فغرقلت مشروعاته ، بعد أن كبّلته بالديون وفوائدها الثقيلة ، قال الرابع : ولما تنسوا يا جماعة أن وقوع مصر في براثن الاحتلال الإنجليزي الذي استمر من 1882 حتى 1952 قد فرمل عجلة التقدم ، التي كان الشعب المصري يسعى بكل جهد ممكن لانطلاقها .

الخامس : المهم الآن يا سادة هو منهج التحديث وآلياته في مطلع الألفية الثالثة ، فقد رحل الاستعمار ، وتحررت الإرادة المصرية من سيطرة الأجانب ، وتأكّدت لمصر مكانتها الإقليمية ، وأصبحت لها سمعتها العالمية .

كما أنها قد استكملت بنيتها الأساسية ، ولم يبق أمامها سوى أن تخطو تلك الخطوة المنشودة على طريق التحديث . سأل الأول : وما هي في رأيكم تلك الخطوة ؟ قال الثاني على الفور : التعليم العصري الذي يملأ عقول التلاميذ بالمعلومات ، ويحرك أيديهم بالمهارات ، ويضعهم على طريق الكفاءة ، كما يدفعهم إلى الابتكار والإبداع . وقال الثالث : في رأيي أن الإدارة هي نقطة البدء الحقيقية ، فهي التي تدفع عجلة الإنتاج بالسرعة اللازمة ، مزيلة من أمامه كل العوائق ، وموجهة له إلى أفاق واسعة في الداخل والخارج . أما الرابع فقال : لكن ينبغي ألا تنسوا احترام قيمة الوقت ، ومزايا الابتقان .

وقد ورد في ثقافتنا العربية أن الوقت من ذهب كما أنه كالسيف . إن لم تقطعه قطعك . ونحن نشاهد الكثير من الأوقات المهدرة فيما لا ينفع ، كما أن الابتقان غائب مع الأسف في كثير من المجالات ، لذلك ينبغي أن توضع القوانين لمحاسبة من يهدر الوقت ، أو يتسبب في الإخلال بالابتقان في العمل . وعاد الخامس يقول :

وقبل ذلك كله وبعده ، لابد من إيقاظ ضمائر الناس ، لكي يعملوا من أجل المصالح العام كما يعملون لصالحهم الخاص . وفي تقديرى أن المهنيين لا يتعارضان . فالإنسان الذي يراعى مشاعره أسرته لن يضيره في شئ أن يراعى مشاعر الغرباء . والذي يحرص على نظافة منزله يمكنه أن يساهم في نظافة الحي الذي ينتمي إليه . والذي يعنف ابنه على شرب السجائر عليه أن يبدأ أولاً بنفسه